# شعرية الحجاج في الخطاب الدُّعائي في التراث العربي الإسلامي

## (دراسة في تلازم البعدين الحجاجي والإمتاعي في الدعاء)

الدكتور: عبد الفضيل ادراوي

كلية الآداب ـ تطوان ـ المغرب

**تهدف هذه الدراسة إلى التدليل على القيمة الأدبية للخطاب الدعائي في التراث العربي الإسلامي، بما هو خطاب توجيهي ترشيدي اعتمد في السنة النبوية، وانتهجه الصالحون والعارفون بالله من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومن رجال التصوف ومدراس السير والسلوك والرياضة النفسية، سبيلا لترسيخ المعتقد وتثبيت مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وتوجيه القناعات والعمل عل إقناع الآخر. وهي مسألة قد تتجاوز ما تشهده الساحة الثقافية من آراء ترى في الدعاء عموما جوانبه العاطفية المحضة، وتقصره على حدوده اللازمة، مركزة على ما له علاقة بتصوير الأحاسيس والمشاعر، أكثر من الاهتمام بما له صلة بجانبه الحجاجي. فقد تحمست الباحثة بهية اللحياني مثلا، إلى الجانب الشعوري في الدعاء قائلة: "وما الدعاء إلا فيض الشعور وضعف النفس وانكسارها، يصارح فيه العبد ربه متجردا من قوته، كاشفا عن حاجته في وتذلل واستعطاف"(1).**

كما رأى الباحث محمود البستاني أن "الدعاء شكل أدبي يقوم من حيث المظهر الخارجي على المحاورة الانفرادية.. ومن حيث المظهر الداخلي يقوم على عنصر (وجداني) يتصاعد به الداعي إلى أوج الانفعالات الصادرة عنه"(2)، وهو حكم نقدي يختزل طبيعة المنظور التقويمي الذي تَحَكّم في فئة كبيرة من المهتمين بشأن الدعاء، وبتقييمه من حيث مكوناته العقدية والفكرية والأدبية. هذا المنظور يتحمس لحشر هذا الخطاب برمته ضمن الدائرة العاطفية، من دون اهتمام بجوانبه العقلاتية الحجاجية، وبغاياته الإقناعية التأثيرية.

**1 – الدعاء والحتمية الحجاجية.**

لا يمكن ولوج منظومة التفكير في الثقافة العربية الإسلامية بمعزل عن وظيفية الخطاب الدعائي وسمات العقلانية فيه. خاصة باستحضار المفهوم العام للحجاج في النظرية البلاغية المعاصرة. فهو "يتسع لنشاط الكلام"، وهو في أحد أجلى معانيه: "التعبير عن وجهة نظر في ملفوظات عديدة أو ملفوظ واحد بل حتى في كلمة واحدة"(3). ذلك أن إطلالة سريعة على المأثور من الأدعية في التراث العربي الإسلامي، سواء أكانت أدعية واردة في القرآن الكريم، أم موروثة عن الرسول(ص)، أم لهجت بها ألسنة الصحابة والتابعين والداعين من المتصوفة ورجال العرفان، نثرا وشعرا، في مختلف العصور، كلها تفضي إلى أن سمات الحجاج ونزعات الإقناع، تعد سمات مهيمنة في هذا التراث.

وغير خاف أن الداعين المسلمين، قد كانوا ينتجون خطاباتهم في بيئة لم تكن لتخلو من حس البيئة السجالية، نظرا إلى تعدد المشارب الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، تبعا لتعدد مكونات المجتمع الإسلامي، ونظرا إلى تعدد المدارس الفكرية والكلامية، وكثرة المذاهب الفقهية، ونظرا إلى غنى المدارس الفلسفية على الساحة الإسلامية، على امتداد تاريخ الدولة الإسلامية الممتد.

وهي أشياء تفرض علي الداعي أن يراعي هذه الأمور، وأن يضع في حسبانه أن كلامه حتما موجه إلى الصديق وإلى الخصم إلى العدو، وأن عليه أن ينهض بهمته الرسالية. ويتوجب عليه أن يتحمل هذه المسؤولية، التي هي مسؤولية لا تنفصل عن رسالة المسلم العامة.

وتبدو أهمية التحليل الحجاجي للخطاب الدعائي باستحضار المراكز التعليمية التخليقية التي كان الداعون يشغلونها، من الأنبياء والرسل(ع).وباستحضار النهج الإصلاحي الذي اتبعهمن تبعهم من الصحابة والتابعين، وغيرهم من رجالات التصوف وأصحاب الرياضات النفسية في العالم الإسلامي. فقد كان لجلهم منهج في الدعوة والإصلاح يقوم على "الجهر بالحق وعدم المداهنة في تشخيص الأحوال وتقديم النصيحة"(4). ولا يخفى أنهم كانوا يمثلون القدوة لغيرهم، وكان لهم عديد من المريدين والأتباع، وكانوا معنيين بتربية الآخرين وتوجيههم.

لقد كان الدعاة من أقطاب التصوف مثلا، كلهم رجال سير وسلوك، وأصحاب خلوة وتعبد، لكنهم في الآن ذاته كانوا مكلفين بتقديم الصورة المثلى للحالة الفكرية الإسلامية، وكانوا يتصدون عن وعي ومسؤولية لتجسيد مبادئ الفكر الإسلامي العملي، والترويج للعقيدة الإسلامية الحقة، والسعي لإصلاح المجتمع "من خلال إصلاح سلوك الأفراد وتقويم آفات النفس عبر العمل والممارسة"(5).

وكان لهم أدوار طلائعية في مواجهة أصوات الانحراف والغلو. فأدعية وأذكار المتصوفين المغاربة مثلا تميزت بالتوجه السني، أو الإفصاح عن المرجعية السنية(6). بل إن مضامينها وألفاظها" تختار بدقة تنأى بها عن ألفاظ ومصطلحات تشم منها رائحة الغلو والشطح"(7). لأن الدعاة كانوا يتحرون الإبقاء على ارتباطها بالقرآن والحديث وأقوال الشيوخ والسلف الصالح. ومن هنا نتبين أهمية التحليل الحجاجي لهذا الخطاب، لأنه يغدو بالضرورة خطابا متعدد المقاصد ومتشعب الوظائف البلاغية، فتتسع دائرته وتمتد من الفرد إلى الآخر، إلى المجتمع، وإلى الإنسانية في وجودها الراهن والواقعي الذي يعايشه منتج النص الدعائي، وفي وجودها العام والمطلق، الشامل للإنسانية في بعدها المجرد عن الزمان والمكان.

ونحن لا نعدم الكثير من المواقف التي يستفاد منها الطابع السجالي، وتنبئ بتموقع منتجي الدعاء في صلب المعارك الفكرية التي كانت تشهدها الساحة الثقافية، أو المحيط الذي كانوا يعايشونه.

ففي كلام وجهه الرسول(ص) إلى جماعة من اليهود بشأن التوراة استنكر عليهم صنيعهم قائلا: "..بَلَى، ولَكِنَّكُم أَحْدَثْتُم وَجَحَدْتُم مَا فيها.. وَكَتَمْتُم مِنْها مَا أَمَرْتُمْ أَنْ تُبَيِّنُوهُ للنّاسِ"(8). نجد تصريحا بما يفيد أن المقام الذي أنتج فيه الخطاب النبوي كان فيه من الاختلاف والجحود ما كان يستلزم منه(ص) بالضرورة، التصدي لحالات الجحود والإنكار، سواء أكان ذلك بشكل مباشر، عبر الخطب والرسائل والمناظرات، أم كان بشكل غير مباشر، من خلال تضمين الأدعية والمناجاة والأذكار وغيرها ما يؤسس للعقيدة والفكر الحق ويثبتها، في مقابل عقائد الجحود والإنكار، ومحاولات طمس الحقائق والتعمية عليها بمختلف الأساليب الممكنة.

وهو كلام يحيل إلى سياق سجالي لا يخفى، فيه من أجواء التوتر والتصادم بين الأطراف ما لا يمكن إنكاره. وما يعنينا أن الدعاء الذي أنتجه أصحابه في ظل هذه الأجواء، وفي مثل هذه السياقات المشحونة، لا يمكنه أن يظل بمنأى عن تأثيراتها. بل إنه لا يمكن أن يبقى بعيدا عن الخوض فيها والمساهمة بنصيبه في تدعيم توجه صاحبه ومنتجه. إن الحجاجية تغدو حتمية واقعية فرضتها طبيعة الظروف المعقدة التي أنتجتها التغيرات المختلفة التي شهدتها الساحة بمعطياتها السياسية والاجتماعية والعقدية والفكرية.

لقد رأى برلمان أن الحجاج: "هو مجموع تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تبعث على إذعان المتلقين للقضايا التي نعرضها عليهم أو تزيد في درجات هذا الإذعان"(9)، وأن غايته "التأثير في الإنسان بأن يجد نفسه مدفوعا إلى العمل أو مهيأ لإنجاز عمل محتمل"(10)، وهو عند آخر"سعي إنسان يهدف إلى إحداث أثر في الآخر"(11)، من أجل العمل على تغيير طبيعة الاختيارات السلوكية والأخلاقية والعقدية في المجتمع.

فالدعاء من هذا الجانب خطاب تابع لما سماه ه.بليثب "مقصدية الأثر"(12). تتحقق حجاجيته من خلال المقاصد الثلاثة المرصودة في الخطاب التداولي:

أ- المقصدية الفكرية؛ وتتمثل في الغرض التعليمي (الجانب الإخباري من الخطاب)،

ب- المقصدية العاطفية، وهي التي ترتبط بالمكون الغائي ذي الصلة بإنتاج الانفعال في المتلقي وجعله يستسلم لمحتوى الخطاب وغرضه، أو مقصدية (الإشباع المترفع)بحسب عبارة كانط.

ج- مقصدية التهييج؛ وترتبط بالانفعالات العنيفة أو الحادة المنتجة للتحميس.

**2 - الدعـاء والأطروحة المـركزيـة**

تتعدد القضايا أو الاطروحات المركزية في الدعاء الإسلامي، نظرا إلى تعددها وتنوعها زمانا ومكانا وظروفا. بل إن المتتبع لهذه الأدعية ليتوه بين قضايا وموضوعات تكاد لا تبقي مجالا من المجالات التي يمكن أن يستوعبها الذهن البشري إلا وتتطرق له وتتناوله. وكل دعاء يشكل كونا خاصا، ومتنا لموضوعات وقضايا إنسانية ووجودية عديدة.

وفي الوقت نفسه يلمس الحجاج والإقناع من خلال اجتهاد الداعي لترسيخ وجهة نظره، وتثبيت قضيته التي يعرضها ويتفنن في تصويرها عبر دعائه.

فكثير من النصوص تشترك فيما يمكن أن نسميه بالأطروحة المركزية، التي تتمثل في طرح قضية الرسالة الإسلامية، وتفصيل عقيدة التوحيد، وتبيين أسس الإيمان الحق والكشف عن طرق الإيمان والاعتقاد المؤدية إلى الخلاص وتبرئة الذمة.

إن القضية الكبرى في الدعاء أو الأطروحة المركزية فيه، هي نفسها قضية الإسلام بعناصرها وتفصيلاتها كالتوحيد والمعاد والحقيقة المحمدية.

**2-1 – أطروحة التوحيد**

من الأدعية المشهورة عن الرسول(ص) في سياق إذا أراد أحد أن ينام، أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: **"اللَّهُم ربَّ السّماواتِ ورَبَّ الأرْضِ ورَبَّ العَرْشِ العَظيم. رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شيْءٍ . فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى. وَمُنْزِلَ التَّوراةِ والإنْجيلِ والفُرقانِ. أَعوذُ بكَ مِنْ شرِّ كُلِّ شَيءٍ أنتَ آخذٌ بناصِيتِه. اللَّهُمّ أَنْتَ الأَولُ فليْسَ قَبْلَكَ شيءٌ . وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ. وأَنْتَ الظَّاهِرُ فليْسَ فَوقَكَ شَيءٌ. وَأَنْتَ الباطِنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ. اِقْضِ عنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنا مِنَ الفَقْرِ"**(13).

يبدو هذا الدعاء النبوي الشريف مرتبطا بسياق زمني مخصوص هو وقت النوم. وهو مؤشر زمني يعد بمثابة عتبة نصية توجه القراءة، وتسوقها نحو قصر أبعاده على ما هو تعليمي، عبر توجيه الداعي المسلم إلى تمثل السلوك الأمثل عند الإقبال على النوم، والارتباط الذاتي بالله تعالى لحظة الانفراد والوحدة الليلية.

فالمقام الظاهر المصاحب للدعاء قد يبدو بعيدا عن مقتضيات الحجاج، نظرا إلى طابع الخلوة والتفرد وسكون الليل، والبعد عن معترك الحياة وضجيج الأنداد والخصوم في النهار. إلا أن قليلا من التأمل في النص يكشف عن كونه بيانا خطابيا يحتوي على قضايا جوهرية في الدين الإسلامي يراد توصيلها وتحقيق الإقناع بها.

يستغل الداعي حواره مع الله وتقدمه إليه بمطالبه الشخصية ذات الصلة باللحظة الخاصة التي يعيشها، ليبسط **قضية التوحيد في العقيدة الإسلامية**، عبر تفصيلات فنية وجزئيات بلاغية

دقيقة؛ فموضوع النص أو دعواه إذن، يمكن اختزالها في إظهار **وحدانية الله** والكشف عن عظمته التي لا تعدلها عظمة. وبيان تفرده تعالى بخلق الخلق ابتداء وإنشائهم إنشاء. وتفننه في ابتداع السماوات والأرض والعرش، وإيجاده جميع المخلوقات من بشر وأشياء، وتعهُّدها سبحانه بالتربية والتوجيه والتتبع. عبر تنزيل الكتب السماوية جميعها وهيمنته على الوجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية والظاهر الموجود بلا مكان، والباطن الخفي في كل شيء.

هكذا يبدو الموضوع العام للدعاء متناسبا مع اللحظة الزمنية التي تعيشها الذات الداعية. ففي لحظة أخذ المضجع للنوم يواجه الإنسان صمتا وسكونا مؤثرا. وهو يترك كل شيء خلف ظهره، ويأوي وحيدا إلى فراشه، مفارقا ماله وأهله، مقبلا على عالم جديد لا يدري مصيره فيه ولا يعرف هل سيعود منه أم لا. فالموقف شبيه بموت مصغر لا يناسبه سوى الإقرار لله بوحدانيته وعظمته وقدرته المطلقة، وإظهار الضعف والتذلل والخضوع، والاعتراف بالتقصير والافتقار إليه.

إن الداعي يزاوج بين نداء لفظ الجلالة (الله) الذي يستفتح به الكلام. إنه اسم من أعظم الأسماء وأجلها، يستجمع ما يفي بدلالات الإيمان والشهادة لله، فقد "خُصَّتْ به كَلِمةُ الإِخْلاصِ وَوَقَعَتْ به الشَّهَادَةُ؛ فصار شعار الإيمان"(14). وهي جميعها معان تناسب لحظة الوحدة والخلوة والانفراد والحال المشابه للموت، الذي لا ينفع فيه المرء إلا تعلقه بكبرى يقينيات الإيمان.

وفي انتقال الداعي إلى التوسل بالاسم البدل(رب) ما يؤكد الغاية الإقناعية في الدعاء، فهو اسم من الأسماء الحسنى، يجمع بين معاني السيادة ومعاني الملك(15). وهي المعاني التي تستشعرها الذات وتبدي حاجتها إليها في لحظة الخلوة والسكون. فالداعي المواجه لعوالم النوم والسكون، عوالم يطل من خلالها على الموت، تجعله يحس في نفسه ضعفا وعجزا وحاجة ماسة إلى حصن منيع يأوي إليه، فيستحضر الله تعالى، الذي هو سيد الجميع ومالك الكل، ملتمسا بذلك تحصيل نوع من الأنس والاستقرار.

وفي إضافة رب إلى ضمير الجماعة (نا) ما يوحي بأجواء الرعاية والعناية والتعهد التام من الله لعباده ومخلوقاته. وهو ما تظهره فاعليته تعالى في فلق الحب والنوى، وهي عملية فيها من الدقة

والإعجاز ما يؤكد العظمة والقدرة الإلهية المطلقة. بل إن الفعل في حد ذاته هو عناية وتعهد من الله، من جهة أن إيجاد الحب والنوى مصدر الحياة وسبب بقاء كل الكائنات الحية.

ويأتي الحديث عن تنزيل الكتب السماوية داعما النزعة الإقناعية للداعي، فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعها كتب منزلة لتقويم شؤون الحياة وترشيد الخلق وتوجيههم. ومن بلاغة الترتيب في النص ذكر القرآن مؤخرا على الكتب السماوية الأخرى، ما يؤكد النزعة الإقناعية لدى الداعي، وسعيه إلى ترسيخ هيمنة رسالة التوحيد، وتثبيت سيادتها على غيرها من الرسالات. والملاحظ أن جل ألفاظ الجمل المؤثثة للنص يغرفها الداعي من القرآن، تجسيدا لمرجعيته في وعي الداعي، ودعوة إلى اتخاذه مصدرا للمعرفة دون غيره.

وتساهم جملة من العناصر التركيبية في تثبيت الأطروحة المركزية للنص؛ فثمة مزاوجة بين الجمل الفعلية:(اللهم رب-أعوذ بك- اللهم أنت- اقض عن- وأغننا) وبين الجمل الاسمية:(أنت آخذ- أنت الأول- أنت الآخر- فليس بعدك شيء-فليس فوقك شيء- فليس دونك شيء..).

وهذه خطة أسلوبية تجسد ثنائية الحركة والسكون، أو ثنائية الحياة والموت التي تؤرق وعي الداعي وتشكل هاجسا حقيقيا لا يفارقه.

ولا يخفى ما في تكرير لفظ (رب) مضافا إلى مخلوقات متنوعة من إشعار بتشريف هذه المخلوقات بجعلها في رعاية الله وحصنه. بل إن في تكرير اللفظ إشعارا بحلاوة ترديده وتذكيرا بأهمية جريانه على الألسن. ويتكرر في الدعاء أسلوب النفي بشكل لافت؛ (فليس قبلك شيء-فليس بعدك شيء-فليس فوقك شيء-فليس دونك شيء). وهو نفي يأتي في مقابل إثبات صفات متأصلة في حقه تعالى(الأول -الآخر-الظاهر-الباطن)، فيكون مساهما في تأكيد معاني التوحيد وترسيخ الأطروحة في العقول والقلوب. وتنضاف التكرارات الجزئية(ضمير المخاطب أنتَ-واو العطف) لتخدم الغاية الإقناعية نفسها مساهمة في تثبيت المعنى العام وتأكيد المفهوم.

والأمر نفسه مع طباق السلب الذي يعد عنصرا بلاغيا داعما أطروحة النص؛ ف(الأول والآخر)، و(الظاهر والباطن) صفات تحوز قيمتها البلاغية من كونها لا تصدق على غير الذات

الإلهية. فسياق الجمع بينها وانتقاؤها من الاستحالة إلى حيز الإمكان في حضرة الذات الإلهية إجراء بلاغي يعمق مفهوم التوحيد ويجليه بشكل أكثر.

ويعد التوازي الصوتي الناجم عن تماثل الجمل في نظام الصيغة النحوية، وعن التواطؤ في الفواصل، ظاهرة إيقاعية تمنح النص موسيقية خاصة؛ (أنت الأول فليس قبلك شيء// أنت الآخر فليس بعدك شيء// أنت الظاهر فليس فوقك شيء// أنت الباطن فليس دونك شيء). وهي ظاهرة ترتقي بالدعاء إلى درجة النثر الفني الموقع عبر انضباطه لصنعات صوتية واشتقاقية لافتة. ويساهم تكرار الوحدة اللغوية (اللّهم) في خلق متتاليتين صوتيتين بينتين، تدعمان الإيقاع وتميزانه في أذن السامع والقارئ.

**2-2 – أطروحة المعاد**

تعد موضوعة المعاد من الأطروحات الأكثر ترددا في الأدعية الإسلامية، وهي موضوعة تحوز قيمتها الإقناعية من جانب كونها تدلل على الاختيار العقدي للداعي، الذي يبدو من خلالها مؤمنا بالغيب وبمقرراته وبدقائقه وتفصيلاته.

إن طرح الداعي موضوعة المعاد وبسط تفصيلاتها، يضع المتلقي في صلب الأجواء الحجاجية. لأن اختيار موضوع دون سواه، والتلفظ ببعض الجمل دون غيرها يعد من صميم موضوع الحجاج-بحسب نظرية فينيو-. لأن اختيار المرء أن يقول ويدعي بعض الأشياء دون غيرها عملية عقلية تحمل المخاطب على المشاركة في الرؤية وعلى التأثير فيه والسعي إلى تغيير مختلف التمثلات التي تنسب إليه بإبراز بعض مظاهر الأشياء وإخفاء البعض الآخر(16).

ويمكننا أن نستدل على بعض من التجليات الإقناعية لأطروحة المعاد بالدعاء النبوي التالي: فعن بن عباس أن رسول الله(ص) كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: **"اللّهُم لكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السماواتِ والأرض، ولَكَ الحمدُ، أنتَ قيَّامُ السماواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ، أنتَ ربُّ السّماواتِ والأرضِ ومنْ فيهنّ، أنتَ الحقُّ ووعدُكَ الحقُّ ولقاؤُكَ حَقٌّ والجنةُ حقٌّ والنارُ حقٌّ والسّاعةُ حقٌّ، اللّهم لكَ أَسْلمتُ وَبكَ آمَنتُ وعليكَ توكَّلتُ وإليكَ أَنَبتُ وبِكَ خاصَمتُ وإليكَ حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، إنَّكَ إلهي لا إلهَ إلا أنت"**(17).

يتضمن هذا الدعاء قضايا متعددة تعد قضايا جوهرية في العقيدة الإسلامية، ويعنينا منها في هذا المقام موضوعة **البعث والمعاد،** التي يركز عليها الدعاء ويطرحها جماليا، محاولا تحقيق الإقناع بها عبر خطة بلاغية متشابكة العناصر، تسخَّر جميعُها للتأثير في المتلقي؛ فهو يعتمد بناء هيكليا دالا قوامه:

- تحميد الله،
- التوحيد والإقرار بالربوبية المطلقة لله،
- الإقرار بالبعث والمعاذ،
- ثم الاعتراف بالضعف وإظهار التعلق واللجوء إلى حضرة الله بالتوبة والإنابة، انتهاء بالعودة مجددا إلى التوحيد.

إن البلاغة الهيكلية للدعاء محكومة بتجليات إقناعية متعددة تساهم مجتمعة في توصيل الفكرة وتثبيت الأطروحة؛ فالداعي يتوسل في حديثه بما يتناسب والموقف الجلل محور الدعاء.

فالموقف المصاحب للنص موقف مؤثر ومدهش، لأن الذات الداعية تعيش أجواء الليل وسكونه وهدوءه، مع ما يُشعر به ذلك من وحدة وخلوة. فالاستيقاظ من النوم صورة مصغرة عن الموت، وهو حياة جديدة وصورة رمزية من صور البعث، وهي فرصة إضافية تمنح للفرد كي يتدارك أمره ويصلح ما فسد من شأنه، فهي نعمة كبرى تستلزم من العاقل الحمد والثناء على الله واهب نعمة الحياة ومانح العباد فرص التوبة.

ـــ حجاجية التحميد

تبدو مدخلية الحمد مبررة فنيا بالسياق الليلي المصاحب للنص. وقد جاء الحمد معرفا ب(أل) التي تفيد استغراق جنس الحمد، أي أن كل الحمد والثناء هو لله لجميله الاختياري على الخلق جميعا. فكل نعمة أو جمال أو عطاء، إنما هو من آثار جماله. وكل خير في العالم هو من آثار فيضه. وذكر اسم الله المقدس في المقام يبدو كأنه إشارة إلى علة اختصاص الحمد لله تعالى، لأن الله –كما أسلفنا– اسم للذات المستجمع لجميع صفات الكمالات.

وفي افتتاح الدعاء باسم الله واختتامه بالضمير العائد عليه تعالى تجسيد لهيمنته تعالى على كل شيء، ودعوة إلى تسليم كل أمر إليه. وفي ذكر السماوات والأرض لفتة من الداعي لرد كل توهم قد يزعم نسبة نعم أو خيرات إليها كالنور أو المطر مثلا، فما هي إلا واسطة مُظهرة لنعم المنعم الأصل، وتجل من تجليات نعمه الذي تنحصر حقيقة الحمد فيه. فالداعي يظهر محمودية الله تعبيرا عن معرفته بالمنعم وتقديرا للنعمة.

ويصل الداعي إلى الإقرار بالربوبية المطلقة لله تعالى، تعبيرا عن الاعتراف بتعهده تعالى جميع المخلوقات بجميع أجزائها وجزئياتها وأفرادها وجهاتها، وتكفله تعالى بتبليغها إلى مرتبة الكمال التي اقتضتها حكمته وشاءت قدرته. فهو المدبر شؤون الكون بجميع عناصره، فربوبيته تعالى شاملة كل ما في الوجود. وإذا كانت الظواهر الكونية الكبرى شاهدة بربوبية الله، فالأحرى أن تشهد بذلك المخلوقات الأصغر. فيكون هذا المدخل التحميدي قائما على نفس حجاجي جلي، ينشد من خلاله الداعي تثبيت عنصر الإيمان في المتلقي.

إن موضوعة البعث والمعاد لا تذكر في النص إلا بعد التمهيد لها بالحديث عن التوحيد الذي يغدو مقدمة طبيعية وضرورية؛ فهو أساس الاعتقاد وعليه تترتب عناصر الإيمان وبه تتقوم. ولا يمكن التطلع إلى النجاة والخلاص في المعاد، ما لم يتحقق جوهر التوحيد.

**ـــ حجاجية الأسلوب والتركيب**

وتساهم جملة من التقنيات البلاغية التركيبية والأسلوبية والمعجمية في تدعيم أطروحة النص؛ ومن حيث الأسلوب يظهر انتصار الداعي للجمل الاسمية في تبليغ رسالته. فرغم المزاوجة بين الفعلية والاسمية، إلا أنه يُغلّب الجمل الاسمية، لأنها تفيد الثبات والاستقرار الذي يتماشى مع ترسيخ الفكرة وتثبيت الأطروحة. خاصة الجمل المتحدثة عن المعاد، فهي جميعها اسمية مثبتة لا نفي فيها، تجسيدا للحقيقة، ودرءا لكل شك أو ريب متوهم؛ (أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق).

وهي جميعها جمل خبرية يقرر من خلالها الداعي حقائق ويوصلها إلى الأذهان لتحقيق التصديق بها. يضاف إلى ذلك كونها جميعا أخباراً ابتدائية، خالية من حروف التوكيد. فالداعي

يتحدث من مقام الفطرة السليمة الذي يقتضي خلو الذهن من أي شك أو تردد، كما أن خضوع السماوات والأرض ومن فيهن لأمره وتدبيره تعالى، تعد مقدمات مقنعة، ودلائل مشهودة وشاهدة سلفا، تزيل كل شك أو تردد.

وتعد ظاهرة التكرير سمة بلاغية جزئية لافتة، تساهم بدورها في تأكيد المعنى وترسيخه في المتلقي؛ فتتكرر في النص جملة(لك الحمد) لتأكيد المعنى وتثبيت نسبة الحمد إلى الله، وتتكرر كلمات بعينها(السماوات والأرض) لشد الأنظار إلى إليهما بوصفهما ظواهر كونية كبرى خاضعة لربوبيته تعالى، فيكونان بمثابة حجة ظاهرة ومتحققة تدعم أطروحة المعاد. ويكرر الداعي ضمير الخطاب المتصل (الكاف) والضمير المنفصل (أنت)، لأنهما يفيدان استحضار الذات الإلهية بشكل مباشر تماشيا مع ما تقتضيه أجواء البعث والنشور من مواجهة مباشرة للحقائق وقيام فعلي بين يدي الحق تعالى.

ومن الطريف الإشارة إلى أن الضمير العائد على الذات الداعية، يرد في النص بمجمله، بصيغة الإفراد، فهو إما تاء متحركة؛(أسلمتُ-آمنتُ-توكلتُ-أنبتُ..)، أو ياء المتكلم؛ (لي- إلهي). وهذهطريقة فنية تناسب أجواء الوحدة والانعزال التي يفرضها سياق أطروحة المعاد.

وتساهم ظاهرة الجر بدورها في تجسيد فكرة المعاد. ففي تركيزه(ص) على تسبيق كاف الخطاب بحرفي الجر اللام وإلى (لك..لك..لك..لك..إليك..إليك..)، إشعار بحقيقة الحركة الوجودية، وبحتمية المسير إليه تعالى. فالوجود كله بما فيه من مخلوقات محكوم بفكرة المعاد. وهو سائرحتما ويقينا إلى الله.

وتدعم ظاهرة التقديم والتأخير بدورها الفكرة نفسها، فتقديم متعلقي الخبر على المبتدإ في جمل التحميد الأولى(لك الحمد)، وتقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل في الجمل الاعترافية (لك أسلمت-بك آمنت-عليك توكلت-إليك أنبت...)، كلها إجراءات لغوية وتركيبية تجسد حتمية المعاد، وتشخصه جاعلة منه حقيقةً ماثلة في الوعي. فتقديم الضمير العائد على الذات الإلهية، يستهدف لفت النظر إلى محوريتها في الوجود، وإلى أصالة الفكرة وأهميتها وخطورة التهاون في شأنها.

بل يمكن أن نلحظ هيمنة جمالية التقديم على مستوى النص برمته؛ فإن أطروحة المعاد قد جاءت متأخرة على موضوعات التحميد والتوحيد والربوبية، لأنها جميعها أركان تؤسس لها وتقود إليها.

**ـــ حجاجية الإيقاع**

تساهم ظواهر إيقاعية عديدة في دعم أطروحة النص. فثمة اعتماد جمل بسيطة وقصيرة، سهلة الورود على الألسنة وعلى الأسماع. وثمة تكرير مقاطع بعينها، تغدو بمثابة لوازم إيقاعية تمنح النص رتبا نغمية مميزة؛ فتكرير جملة (لك الحمد) في متن الجمل الأولى، وتكرير لفظة (حق) في متن الجمل اللاحقة، يعطي النص إيقاعا خاصا له جماليته وسحره.

وفي النص سجع قصير الفقرات، يمنح الألفاظ رنة صوتية تحببها الأسماع وتلتقطها الأنفس والعقول بسهولة وخفة. وتمشي فواصل السجع في النص وفق ترتيب تنازلي يبدأ من اتحاد الجمل في حروف كثيرة(السماوات والأرض)، مرورا بفاصلة الحرفين(حق)، انتهاء بفاصلة الحرف الواحد(التاء). وهو إجراء بلاغي يسوق المتلقي من التعدد إلى الوحدة، أي نحو حقيقة التوحيد التي تتجسد صوتيا ودلاليا في لفظة(أنت).

ومن مقومات الإيقاع في النص انطواؤه على نظام جُملي مؤسس على تماثل في صيغ الوحدات اللغوية المتقابلة والمتشابهة في تركيبها النحوي: (شبه جملة خبر مقدم+مبدأ مؤخر). وهو تركيب يتواتر ثلاث مرات، و(مبتدأ ضمير منفصل+خبر+مضاف إليه ومعطوف)، وهي صيغة تتكرر ثلاث مرات، و(مبتدأ +مضاف إليه+خبر) وهو تركيب يتكرر مرتين، و(مبتدأ+ خبر) وهو تركيب يتكرر أربع مرات، ثم (جار ومجر+جملة فعلية من فعل وفاعل ضمير متصل بارز)، صيغة تواترت ست مرات.

وتبرز ظاهرة التضعيف رافدا إيقاعيا إضافيا، إذ تحقق في النص (انفجارات) قوية تحدث في الذات اهتزازا ورجا، تشعرها بقوة وشدة في الموقف. ما يدفعها إلى استحضار عظمة المحشر وهول المبعث. واللافت أن التضعيف يأتي متأرجحا بين الضم والفتح؛ (لَّ-مَّ-سَّ-يَّ-بُّ-نَّ-قُّ-كَّ-دَّ-خَّ-لَّ). مع تغييب الكسر تجسيدا لعظمة الموقف وعلو شأنه.

**2-3 - أطروحة النبوة أو الحقيقة المحمدية**

لقد شكلت النبوة قضية جوهرية في تراث الأدعية الإسلامية، ليس بما هي موضوعة جزئية ضمن النصوص الدعائية، بل بما هي مكون جمالي وإجراء بلاغي هادف، يوظف ضمن استراتيجية نصية واعية. فقد كان البيت النبوي ممثلا في الرسول (ص)وأهل بيته وأزواجه وذريته وصحابته(18)، منطلقا فكريا وعقديا، عمل الداعون على صياغته وفق مادة تعبيرية جمة، أفرزت أنماطا دعائية متنوعة، كالمديح النبوي والزيارات والتوسلات والتصليات والاستشفاعات..إلخ. وجميعها جاءت غنية بصور من الحب والشوق، وأفانين من التوصيفات الروحية التي حولت موضوعة النبوة إلى ما عرف أو اصطلح عليه في مدرسة الداعينوبين رجالات التصوف بالحقيقة المحمدية.

في مقطع من دعاء تصلية للشيخ ابن السكاك العياضي المكناسي(19):

**(اللَّهُم اجْعَل صَلواتِك ورَحْمتَك وبَركاتِك على سَيّد المُرْسَلين وإمامِ المُتَّقين وخَاتَم النَّبيّين مُحمدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِك إمامِ الخَيرِ وقَائدِ الخَيرِ ورَسولِ الرَّحمةِ، اللّهُم ابْعَثْهُ مَقاماً مَحموداً يَغْبطه فيه الأوّلون والآخِرون....**

**السلامُ على أنبياء الله ورُسله،....السّلام عليكَ يا نبيَّ الله، السلامُ عليكَ يا رسولَ الله، السَّلامُ عليك يا حبيبَ الله، السلامُ عليك يا صفْوَةَ الله، السلامُ عليكَ يا خيرةَ خَلْقِ الله، السلام عليكَ يا مَاحِيُ، السلام عليك يا حاشرُ، السلام عليك يا بشيرُ، السلام عليك يا نذيرُ.. السلام عليك يا أَحمدُ، السلام عليك يا محمدُ...**

**صَلّى اللهُ عليكَ وعلى أَهْل بيتِك أجمعين، وعلى أهْل بيتِكَ الطّاهرين الطّيبين وعلى أَصْحَابِكَ أَجْمَعين، وَسَلَّم تَسْليماً كثيراً دائماً مباركاً إلى يومِ الدّين).**

من خلال هذا النص نجد أن الداعي يوظف الصيغة الدعائية قالبا فنيا لعرض أطروحة النبوة بشكل عام، وأطروحة الحقيقة المحمدية بشكل خاص، على طريقة ما درج عليه الكثير من العباد والصالحين من رجال المعرفة والتصوف عبر العصور. فيتحول الدعاء إلى ما يشبه البيان الخطابي، من خلاله يفصل الداعي القول في **الحقيقة المحمدية**، بما هي معطى عقدي يجلي حقيقتها

ومكانتها الرفيعة في تصوره وكيانه. عبر ملامح من الوجدان المتدفق النابض بالشوق والتعلق والخشوع لجلال المنصب وعظمة الموقف التكريمي الذي خصت به النبوة المحمدية، وما انفردت به من خصوصيات لم تكن لأحد قبلها ولا بعدها.

ومن يمعن النظر في هذا النص الدعائي المطول (يمتد على مساحة أربع صفحات)، يجد أنه يتجاوز كونه مجرد ذكر تعبدي لهج به لسان شيخ متعبد في لحظة وجدانية خاصة، وأظهر خلالها تعلقه بالرسول (ص)، وقدم مطالبه وحاجاته الخاصة إلى ربه راجيا تحققها. فالنص يبدو قائما على استراتيجية إقناعية واعية، ومنتهجا خطة بلاغية هادفة، تروم إثبات حقيقة النبوة المحمدية وإقرارها قضيةً عقديةً ترتبط بالتصور الإسلامي العام، وتلازم حياة المؤمن، وعليها تتوقف نجاته، وبها يكون خلاصه، وعليها يتوقف قبول الأعمال(20).

إن الحقيقة المحمدية مطروحة في النص بما هي وجهة نظر أو دعوى أو أطروحة، تستلزم من الداعي تسخير كل طاقاته الإقناعية، واستنفار كل الإمكانات النصية والبلاغية الممكنة لتحقيق التأثير المطلوب.

فالداعي يجعل كل توصيفاته للرسول صلى الله عليه وآله، وكل تفصيلاته عن شمائله وخصيصاته، مؤطرة ضمن دائرة التصلية، بما هي منطلق إيماني وفعل تعبدي عام، يلامس الحس المشترك بين المسلمين كافة. وبما هي عنوان الامتثال الصادق لأمر الله(21). فافتتاح الدعاء بالصلاة عليه: (اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين)، والختم بها:(صلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطاهرين الطيبين..)، يضفي هالة من القداسة والتعظيم على الكلام الذي يغدو مجلَّلا بروحانية التصلية، مهابا ببركاتها، معززا بمعنوياتها التي تجعل السياق النصي في عمومه سياقا خاصا، لا يحتمل الشك أو الاعتراض. فإطار التصلية يعد إطارا تواصليا فاعلا ومؤثرا. وهو يتمتع بقوة إقناعية نابعة من البعد الغيبي للتصلية، ومن كونها حسا مشتركا جامعا، يلامس وجدان المسلمين جميعهم(22)، ويشكل بذلك سلطة معنوية ودعامة حجاجية نافذة.

فيبدو هذا التأطير خطة بلاغية واستراتيجية نصية تترجم الدعوة إلى ضرورة أن تستوعب كل الأعمال والأذكار والأقوال ضمن فلسفة النبوية. وأن تكون كل حركات المسلم خاضعة لمقتضياتها، ومجسدة لاتباع غير مشروط لشخصية الرسول(ص)(23).

واللافت أن الداعي يتجاوز مطالبه الشخصية ويتخطاها، ذاهلا عنها إلى ما هو أهم في وعيه وكيانه، وهو أن يقدم صورة دقيقة وصادقة عن شخصية الرسول(ص)، ويعرف به كاشفا عن شمائله وخصيصاته التي جعلت منه شخصية نموذجية لا تملك الذات الداعية في محضر ذكرها إلا التسليم لها ولله الذي انتخبها وحملها مسؤولية النبوة والرسالة.

والداعي يزاوج بين الجمل الفعلية وبين الاسمية، عبر توظيف فني واع وموجه؛ فهو في معرض الصلاة والدعاء للرسول(ص)، يوظف الجمل الفعلية(اللهم اجعل صلواتك-اللهم صل-تقبل شفاعته-صلى الله عليك-اللهم بارك-اللهم ابعثه- وأنزله-واغفر لأهل بيته..). وهذا يشير إلى نزوع نصي نحو تثبيت فعل الداعي وإبقائها متجددا وحادثا. لأن الجملة الفعلية تدل على "الحدوث والتجدد"(24). في حين يعمد الداعي إلى السلام على الرسول وإظهار خصيصاته الأخلاقية التعظيمية موظفا الجمل الاسمية(السلامُ عليك يا نبي الله-السلامُ عليك يا رسول الله-السلامُ عليك يا حبيب الله- السلامُ عليك يا صفوة الله...)، لأن "السلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد"(25). وهو بدوره اختيار بلاغي هادف قوامه التأسيس لعلاقة لا تنقطع ولا تبلى، من الحب والتعلق بشخص الرسول(ص).

وارتباطا بمنظور تثبيت الأطروحة المحمدية، يقرن الداعي الصلاة والسلام على الرسول محمد(ص)، بالصلاة والسلام على الأنبياء السابقين وخصوصا نبي الله إبراهيم؛(**اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم.....السلام على أنبياء الله ورسله..**).

وهو أمر ذو مرام بلاغية عديدة؛ أولها أنه يجسد الإيمان الراسخ لدى شخصية الداعي بالرسالات السماوية السابقة، وبالأنبياء الذين بلغوها، انسجاما مع مقتضيات الحقيقة المحمدية نفسها، التي تعد مكللة وخاتمة لسابقاتها. وفي الوقت نفسه يبدو هذا الإجراء عملا إقناعيا مفاده التفضيل المطلق لشخصية محمد(ص).

فتخصيصه بالثناء والتعظيم والإطراء أكثر من غيره، فيه إشعار بسيادته على الآخرين، وبهيمنة رسالته على كل ما سواها(خير خلق الله–سيد الأولين–قائد الخير–إمام المتقين–صفوة الله).فلا يمكن أن يجزي الاعتقاد بأية رسالة سابقة ما لم تكن مستوعبة في الحقيقة المحمدية.

أما الأمر الثاني فيشير إلى رغبة الداعي في نظم الحقيقة المحمدية في عقد الرسالات السماوية السابقة، وإعطائها بعدا وجوديا. إذ تغدو كل الرسالات السابقة تابعة للحقيقة المحمدية، ومنبثقة منها في حقائقها وأسرارها. فهي أصل الحقائق الأخرى، وهي منبعها الذي منه اغترفت الإنسانية على امتداد تاريخها الطويل.

في مقطع من صلاة المولى عبد السلام بن مشيش: **"اللّهُم صَلّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انشقَّتِ الأَسْرَارُ، وانْفلَقَتِ الأنوارُ، وفيه اِرْتقَتِ الحَقائقُ وتنزَّلت عُلومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الخَلائِقَ، وَلَهُ تَضَاءَلَتِ الفُهُومُ، فَلَمْ يُدْرِكْه منَّا سابقٌ وَلَا لاَحِقٌ، ..ولا شَيْءَ إلا وهوَ به مَنوطٌ، ..اللّهُمّ إنَّه سرُّك الجامعُ الدالُّ عليكَ.."**(26).

وفي مقطع من صلاة الإمام الجزولي(27): **"اللّهم صَل على محُمد وعلى آل محمد الذي نُورُه من نُور الأَنوار، وأَشْرَقَ بشُعاعِ سِرِّه الأَسرار.. بحرِ أنوارِك ومعدنِ أسرارِك...إنْسانِ عَيْنِ الوُجودِ والسَّبَبِ في كُلِّ مَوْجود، عَيْنِ أَعْيَانِ خَلْقَك المُتَقَدِّم مِنْ نُورِ ضِيائِك.."**(28)

نجد معانقته المنظورات التصوفية العرفانية التي تمنحها أبعادا وجودية وتكوينية ترتقي بها إلى مستويات من الكمال والقدرة المعنوية الفريدة. حتى إن الخليقة برمتها تغدو متوقفة عليها. وتغدو حقيقة الإنسان مفتقدة ما لم تثبت ارتباطها بها واستمدادها من معينها، بما أصل الكمالات والأنوار.

ولعل هذا الإجراء يبدو مبررا نصيا لهيمنة سمات الإجلال والتقديس على النص، وتراجع المطالب والحاجات الشخصية. ففي انسياق الداعي مع الإعراب عن آيات التقديس والتعظيم للذات المحمدية، وفي تسطيره تفاصيل تميز وعظمة الحقيقة المحمدية، ما يغني عن الإعلان عن المطالب الشخصية بشكل مفصل. لأن الداعي يعتقد أن مطالبه متضمنة بداهة في قصده وتخصيصه الرسول بالصلاة والتسليم.

وعندما يصفه الداعي بعبارات من قبيل؛ (الفاتح لما أغلق- إمام الخير-رسول الرحمة-يا ماحي-يا قائد البررة-يا قائد الخير-ياقائد الغر المحجلين- يا نبي الرحمة..)، فهو إنما يراكم الأوصاف التي تمتد لتلقي بظلالها على الجميع، فتكون الذات الداعية مشمولة بفضائل الشخصية الموصوفة، حتى وإن لم تصرح بمطالبها. فأقصى غايات الداعي أن يقاد إلى الخير حيث كان، وأن تفتح له المغالق، وأن يكون مشمولا بالرحمة المحمدية بما هي مظهر للرحمة الإلهية.

ويعود الداعي في متن كلامه ليصرح ببعض المطالب، لكنه يظل وفيا لنفس المنظور التقديسي التعظيمي المهيمن في محضر الحقيقة المحمدية. فهو يوجه مطالبه وحاجاته نحو ابتغاء الخلاص ونيل الغفران، وتحصيل المقامات المعنوية الرفيعة، انسجاما مع أجواء الطهارة والتطهير التي تشع من فضاء التصلية. فالمقام ليس مقام المادة الفانية، ولا مقام الكسب الجسدي الضيق. فتكون مطالب الداعي ضمن مجموع النص قيد التحليل من دعاء المكناسي نفسه، غير متجاوزة قوله: (اللهم صل على محمد...واغفر لي ولوالدي وما ولدا وارحمها)(29).فالداعي يعين المغفرة والرحمة مطلبين رئيسين ووحيدين من بين كل ملفوظات دعائه المطول، مجسدا بذلك الثقة المطلقة والتسليم التام للحقيقة المحمدية، في قدرتها على أن تكون واسطة وسببا لتحقيق مراد الداعي، عبر الشفاعة بوصفها من أبرز الأسس التي تقوم عليها الحقيقة المحمدية. وهو ما يصرح به جل الداعين عادة في مختتم أدعيتهم المتضمنة في تصلياتهم وزياراتهم وتوسلاتهم. يختم الإمام البوصيري قصيدته النعمانية قائلا(30):

**يَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ يا كَنْزَ الوَرى جُدْ لي بِجودِ كَأَرْضِني بِرِضَاكَا**

(..)

**فَلَأَنْتَ أَكْرَمُ شَافِعٍ وَمُشَّفَعٍ وَمَنْ الْتَجَا بِحِماكَ نَالَ وَفَاكَا**

**فَاجْعَلْ قِراكَ شَفَاعَةً لِي فِي غَدٍ فَعَسَى أَكُنْ فِي الحَشْرِ تَحْتَ لِوَاكَا**

وفي الآن نفسه يجسد الداعي مفهوم الشخصية العرفانية التي لا تبغي من كل حركاتها وسكناتها- بما في ذلك الدعاء والذكر- سوى تحقيق القرب الإلهي وابتغاء الحظوة المعنوية، التي تغني عن عالم المتع الفانية. فهو لا يلتفت إلى زخرف الدنيا، ولا يغريه نعيمها، أو يشغل قلبه بغير

الرب. وهذا هو مقام الزهد بما يعنيه في عرف الصالحين من "خلو القلب من التعلق بغير الرب. أو برودة الدنيا من القلب، وعزوف النفس عنها"(31).

إن الداعي يكتفي بالتصلية مستغنيا بها عن المسألة، لأنه يدرك أنه من خلالها يمارس فعل التعبد، بالنظر إلى أن الصلاة تستوعب معاني ودلالات الدعاء في أبعاده العبادية وأبعاده السؤالية(32). فتغدو كل مقاطع الدعاء التي يرددها الداعي على طولها وتنوعها ممارسة تعبدية وشكلا من أشكال الصلاة، لا تخلو من حس الطلب والسؤال. وهي في الآن ذاته زلفى عبرها يتقرب العبد من ربه، وبها يكون النيل والفوز أكثر احتمالا.

*** ***

محصول القول إذن إن الدعاء لا يخرج، عن الإطار العام الذي ينتظم قانون التواصل في الخطاب البشري، إذ كشفت النصوص عن وجود أطروحة مركزية تنتظمها الأدعية، وتشيد بلاغتها النوعية، من خلال اعتماد نَفَس حجاجي، يهدف الداعي من خلاله تثبيت الأطروحة، التي لا تخرج عن فلسفة الإسلام العامة، ولا تختلف عن رسالته الشاملة، الناظمة لما هو عقدي وما هو عملي حركي. فالداعون كانوا أبدا يرومون تحقيق التأثير في المتلقي، ويتغيون ترسيخ أطروحة المعتقد الإسلامي في العقول والقلوب، عبر استراتيجية إقناعية توسلت مختلف السبل البلاغية المتنوعة،المؤدية إلى حسن التوصيل. باعتماد الوحي والسند الغيبي حجة رئيسة للإقناع، وبتوظيف آليات دلالية وتركيبية وتصويرية مؤثرة، ساهمت مجتمعة في إثبات وجهة نظر الداعي بشأن قضايا العقيدة كالتوحيد والمعاد والنبوة أو الحقيقة المحمدية.

## مراجع البحث وإحالاته:

1- الدعاء في القرآن الكريم، أساليبه ومقاصده وأسراره، بهية بنت حامد اللحياني، بحث مقدم لنيل الماجستر في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2001 (المقدمة)

2- محمود البستاني، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، منشورات مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط1، 1414ه، ص 288

3- معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو- دومنيك منغونو، تر. عبد القادر المهيري وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، (المركز الوطني للترجمة)، تونس 2008م ، ص 69.

يشير فينيو مثلا في سياق إثباته المعنى الشامل للحجاج إلى أن التلفظ ببعض الجمل دون غيرها يعد من صميم موضوع الحجاج . لأن اختيار المرء أن يقول ويدعي بعض الأشياء دون غيرها عملية تحمل المخاطب على المشاركة في الرؤية وعلى التأثير فيه والسعي إلى تغيير مختلف التمثلات التي تنسب إليه بإبراز بعض مظاهر الأشياء وإخفاء البعض الآخر.

انظر معجم تحليل الخطاب، مرجع مذكور ، ص 70

4- قطب التصوف بالمغرب المولى عبد السلام بن مشييش، السعيد ريان،مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2011، ص 120

5- المرجع نفسه، ص 168

6- الأذكار الصوفية،(الوظائف والأوراد والأحزاب ، الأدعية، التصليات)الحسن شاهدي، دار القلم، الرباط، ط1، 2007م، ص 119

7- المصدر نفسه، ص 119

8- السيرة النبويةابن هشام(أبو محمد عبد الله المعافري، ت.213ه) ، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، 1415ه-1994م، ج 2، ص 178

-9 CH PERLEMAN ET L OLBRECHTS TYTECA; TRAITE DE LARGUMENTATION PRESSES UIVERSITAIRES DE LYON 1981, P. 92

-10 Ibd, P. 92

-11 OLERON; L argumentation , Que sais-je, Presses Universtaires de France, Mai 1983 p. 15 11

12- البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص،هنريش بليث، تر. وتع. محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1999، ص 22- 24

13- صحيح مسلم، - الإمام مسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري)،(206-261ه)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1412ه-1991م.، ج4، ص 2084(كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)

14- شأن الدعاء، الخطابي، أبو سليمان، تح. أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، ط3، 1992، ص 30-31

15- المصدر نفسه، ص 99-100

16- انظر معجم تحليل الخطاب، مرجع مذكور ، ص 70

17- الجامع الكبير للترمذي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، ج 5، ص 418، (أبواب الدعوات؛ باب ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة)

18- يورد القاضي عياض روايات، شكلت الأساس العقدي الذي استند إليه كثير من الداعين في بناء منظوراتهم عن الحقيقة المحمدية بمفهومها الواسع الذي يشمل شخصية الرسول وأهل بيته وذريته وأزواجه وأصحابه، وبأبعاده المادية والغيبية والمعنوية. يقول: "ومن توقيره صلى الله عليه وسلم وبِرِّهِ بِرُّ آله وذريتِه وأمهاتِ المؤمنين أزواجِه، كما حض عليه صلى الله عليه وسلمن وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم. قال الله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)الآية. وقال: (وأزواجه أمهاتهم)...قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنشدكم الله أهلَ بيتي ثلاثا)، قلنا لزيد من هم أهلُ بيته؟ قال: آل عليٍّ وآل جعفرٍ وآل عقيلٍ وآل العباس. وقال صلى الله عليه وسلم: (إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما). وقال صلى الله عليه وسلم: (معرفة آل محمد صلى الله عليه وسلم براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط،، والولاية لآل محمد أمان من العذاب) قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا عرفهم بذلك عرف وجوبَ حقهم وحرمَتَهُم بسببه". ينظر:

القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى(ص)، ج 2، ص 45-46

19- الأذكار الصوفية، مصدر مذكور، ص 238 -239.

والدعاء في مجموعه عبارة عن تصلية مطولة تمتد من الصفحة 236 إلى الصفحة 239.

20- يشير القاضي عياض إلى ما يزكي هذا الأمر. فهو يختم مؤلفه عن شمائله (ص) بدعاء منه: "..وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه لما أودعناه من شرف مصطفاه وأمين وحيه وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله ويحمي أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرضه، ويجعلنا ممن لا يذاد إذا ذيد المبدل عن حوضه، ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتائه وباكتسابه، سببا يصلنا

بأسبابه وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه ويخصنا بخصيصى زمرة نبينا وجماعته". ما يفيد أن القصد من التأليف في حقوق المصطفى (ص) ابتغاء الخلاص والحظوة عند الله، والتماس الوجاهة والقرب من حضرته(ص). ينظر:

القاضي عياض(ت544ه)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى(ص)،تح. عبد السلام محمد أمين، منشوات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002، ج 2، ص 333

21- يورد ابن القيم الجوزية موردا مطولا من كتابه في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام(ص)، انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام(ص)تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، (د ت).

22- لقد خصص صاحب الشفا فصولا بكاملها لبيان فضيلة وأهمية الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله وكونها من موجبات المغفرة والشفاعة. ينظر مثلا : ص 66؛ (فصل في كيفية الصلاة عليه)، ص 72؛ (فصل في فضيلة الصلاة عليه)، ص 75 (في ذم من لم يصل عليه)، ص77؛ (في تخصيصه بتبليغ صلاة المصلين). وهي فصول تتضمن روايات عديدة ومتواترة تعد من بديهيات الاعتقاد لدى المسلم. وتشكل دعامة أساسا لفهم هيمنة هذا المكون على كل النصوص الدعائية . وتفسر ارتقاءها إلى مستوى الحجة الإقناعية المسلم بها في سياق التخاطب الإسلامي.

23- في دعاء للشيخ الحداد: "اللهم إنا نسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن ترزقنا كمال المتابعة لعبدك ورسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأعماله وأقواله ظاهرا وباطنا، وتحيينا وتميتنا على ذلك برحمتك يا أرحم الراحمين". تبرز القضية نفسها. فالدعاء يشير إلى أن غاية الداعي تحقيق كمال الاتباع للرسول(ص)، وكل ما يصدر عن الداعي من فعل أو حركات يبتغي بها تجسيد هذا الاتباع. ينظر:

الشيخ الحداد(عبد الله بن علوي بن محمد)، (ت. 1132ه) رسالة آداب سلوك المريد، (سلسلة آداب سلوك الحداد)، دار الحاوي ، ط1، 1412ه-1994م، ص 63

24- ابن القيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام صلى الله عليه وسلم، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، (د.ت)، ص 309

25 المصدر نفسه ، ص 309-310

26- قطب التصوف بالمغرب المولى عبد السلام بن مشيش، مذكور، ص 201

27- الإمام الجزولي، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1994، (بشرح عبد المجيد الشرنوبي الأزهري)، ، ص 24 (الدعاء من الحزب الثاني في يوم الثلاثاء)

28- المصدر نفسه، ص 32، (الدعاء من الحزب الثالث في يوم الأربعاء)

29- الأذكار الصوفية، مصدر مذكور، ص238

30- الإمام البوصيري، الهمزية في مدح خير البرية، دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء،ط1، (د ت)، ص 30

31- معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن عجيبة، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ، الدار البيضاء، (د ت)، ص 30.

وهو يقسم الزهد إلى مراتب بحسب طبيعة السالك إلى الله."فزهد العامة ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء. وزهد الخاصة ترك ما يشغل عن التقرب إلى الله في كل حال. وزهد خاصة الخاصة ترك النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات. وحاصل الجميع برودة القلب عن السِّوى، وعن الرغبة في غير الحبيب" .

32-جلاء الأفهام، مصدر مذكور، ص 159-160

33- يورد ابن القيم عديدا من الروايات تفيد اقتران استجابة الدعاء بشرط الصلاة على النبي، بما يشكل دعامة حجاجية مصاحبة. ومنها على سبيل المثال قوله (ص): (ما من دعاء إلا بينه وبين السماء والأرض حجاب حتى يصلى على محمد (ص)، فإذا صلي على النبي محمد(ص) انخرق الحجاب، واستجيب الدعاء، وإذا لم يصل على النبي (ص) لم يستجب الدعاء). المصدر نفسه، ص 24